الاستلزامُ الحواريُّ والحِجاج في الخطاب الدينيّ عند ابن طاووس الحليّ (ت ٦٦٤هـ)

أ.م. د رحيم كريم علي الشريفيّ
كلية الدراسات القرآنية / قسم علوم القرآن
Qur.Raheem Kareem @uobabylon.edu.iq.

ملخص البحث

تناول البحث الاستلزام الحواري والحِجاج عند رضيّ الدين علي ابن طاووس الحليّ وهو تلبية للدعوة إلى لزوم إعادة قراءة التراث بوسائل منهجية حديثة، من أجل استنباط الأسس المعرفيّة المتنوعة واستكناهها التي بُني عليها الفكر الموروث، ومن ثم الإسهام الجادّ والمثمر في تفعيل التراث في الدراسات اللغوية الحديثة ظ، وتحصل البحث في ضوء معاينة تجليات الخطاب الديني عند ابن طاووس باسترفاد مباديء الاستلزام الحواري، وأصناف الحِجاج فيه، أنْ يكونَ في مبحثين ، أولهما : الاستلزام الحواريّ في الخطاب الديني عند ابن طاووس الحليّ وثانيهما: الحِجاج في الخطاب الدينيّ عند ابن طاووس الحليّ، وخُتم البحث بجملة من النتائج نحسب أنّها ماتعة ومفيدة .

الكلمات المفتاحية :الاستلزام الحواري، الحِجاج، الخطاب، ابن طاووس.

Abstract

The research Alastelzam Apostle and pilgrims when Radhi Din Ali Ibn peacock ornaments, a response to the invitation to unnecessary re-reading heritage with modern methodology, in order to devise various foundations and cognitive Acetknahha which it inherited thought, and thus contribute to the serious and fruitful in the activation of Heritage in Modern Linguistics.

We have adopted to weave strands of this research descriptive and analytical approach based to pick the most important religious discourses, and then presented to the subject matters, and discussed, and enriching to benefit from the words of researchers, who wrote in this area, as well as Alotarih
provided in the speech, and trading.
And get search in light of the preview
of the manifestations of religious discourse when the son of a peacock ornaments Pastrvad principles Alastelzam Apostle, varieties of pilgrims in it, to be in two sections: first, Alastelzam talk in religious discourse when the son of a peacock ornaments .othanehma: pilgrims in religious discourse when the son of a peacock ornaments, stamping Find a set of results we calculate it Matah and helpful, seal search a set of results we calculate it Matah and useful

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للهِ الذي خَصَّ محمداً بالرسالة والنبوّة، والاصْطِفاء، وأنار على يديه دروب البريّة، وقادهم إلى المحجّة البيضاء، وصلّى الله (جلّ جلاله) على المخاطَب بالقرآن ـــ صاحب المنظومة السنّية العليّة ـــ نبيّنا محمّد (α) ، وعلى آله موضوع العصمة والطهارة والرشاد، وعلى صحبه الكرام المخلَصين، أمّا بعد ..

فقد شكّل الإنتاج اللغوي موضوعًا رحبًا للدراسات العلمية ، إذ انتظمته مجموعة من العلوم منها : (علم الخطاب) الذي يُنظر إليه على أساس أنّه عملية اجرائية تقتضي التفاعل المتبادَل بين المتكلِّم والسامع، أو بين المُنشئ والمستمِع ، أو بين المرسِل والمرسَل إليه، على وَفْق ضوابط معينة، ولكن يشترط بين هذين الركنين المعرفة الواعية بآليات الخطاب من أجل الوصول إلى الغايات المنشودة والمرجوّة ، ومن هذه الآليات (التداولية) بوصفها منهجًا لغويًا حديثًا ينظر إلى هذا

النتاج على أساس أنّه فعلٌ كلاميٌ، واستلزامٌ حواريّ وتقنيّةٌ حِجَاجيّةٌ مبنيّ على مقاصدَ معينة بلحاظ الموقف الاجتماعي الذي يوضّحه ويفسّرُه .

إنّ الاستلزام الحواري والحِجاج الذي أزمعنا الحديث عنهما عند ابن طاووس الحليّ، جاءا تلبية للدعوة إلى لزوم إعادة قراءة التراث بوسائل منهجية حديثة ، من أجل استنباط الأسس المعرفيّة المتنوعة واستكناهها التي بُني عليها الفكر الموروث، ومِنْ ثَّم الإسهام الجادّ والمثمر في تفعيل التراث في الدراسات اللغوية الحديثة .

وقد اعتمدنا لنسج خيوط هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على لملمة أهم الخطابات الدينية، ثم عرضها على مسائل الموضوع ، ومناقشتها ، وإثراءها بالإفادة من أقوال الباحثين، و ممّن كتبوا في هذا المجال، فَضْلاً عن الأطاريح المقدمّة في الخِطاب، والتداول.

وتحصل البحث في ضوء معاينة تجليات الخطاب الديني عند ابن طاووس باسترفاد مباديء الاستلزام الحواري، وأصناف الحِجاج فيه، أنْ يكون في مبحثين، أولهما : الاستلزام الحواريّ في الخطاب الديني عند ابن طاووس .وثانيهما : الحِجاج في الخطاب الدينيّ عند ابن طاووس ، وخُتم البحث بجملة من النتائج نحسب أنّها ماتعة ومفيدة، والحمد لله ربِّ العالمين.

مدخل

ستكون المقاربة التداوليّة باستشراف مبدأ الاستلزام الحواريّ القائم على إرادة المتكلّم إيصال المعاني والدلالات بوعي أكثر من الألفاظ والعبارات نفسها، وإحساسه العميق أنّ سامعه، ومُتلقيه قادرٌ على استظهار واستيحاء دلالات مستلزمة لم تظهر على البنية السطحيّة، ومَبدأ الحِجاج التداوليّ المستند على تقريب الصور والحقائق، وإيصال الأفكار من أجل الوصول إلى أقصى غايات التقريب التداوليّ .

ومن هنا، فإنّ هذا البحث سيتناوش هذين البعدين التداوليين التقريبيّن رغبةً وحرصًا في استيحاء المعاني والدلالات المتنوعات ، واستجلائها في الخطاب الديني الطاووسيّ، الذي انطوى على تطبيقاتٍ وشواهد.

ولمّا كان ابن طاووس الحلّي عارفًا تربويّا عاملًا ، جاء خطابُهُ الديني مشحونًا بقواعد هذين البعدين (الاستلزام الحواريّ) و (الحِجاج)؛ لأنَّ الخطاب الديني التهذيبيّ – قطعًا – يستلزم، ويتطلّبُ قدرًا كبيرًا ، وحيزًا وسيعًا من الاستلزامات الحواريّة وأنماط الحِجاج وأنساقه .

المبحث الأول: الاستلزام الحـواريّ

الاستلزام الحواريّ آليةً من آليات الخطاب ، فهو يُقدّم تفسيراً لقدرةِ المتكلم على أنْ يعيَ أكثر ممّا يقول : أي أكثر ممّا تؤديه العبارات المستعملة، فاستعمال جملة(ناولني الكتاب من فضلك) ـ على سبيل المثال ــ المنجزة في مقام محدد يخرج معناها من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس وهو ما تفيده القرينة(من فضلك)[١] .

والاستلزام الحواريّ هو أحدُ مجالات التداوليّة المهمة التي اهتم بها (كرايس) حينما ألقى محاضراته في جامعة هارفرد سنة ١٩٦٧ منطلقاً من فكرة: " إنَّ الناسَ في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون وقد يقصدون

(١) الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، العياشي ادوارد : ١٩ .

عكس ما يقولون (...) فأراد أن يقيم معبراً بين ما يحمله القول من صريح وما يحمله القول من معنى متضمن مما نشأ عنه فكرة الاستلزام الحواري" [٢] .

ومن تطبيقات هذا المبدأ التي نقتنصها من الخطاب الديني الطاووسي، والتي يتوجب على المشاركين في الحديث أنْ يحترموا مبدأ التعاون التي يفترض فيه المتكلم أنّ المستمع يدرك المعنى المستلزم ، وأنّ المستمِعَ (المخاطَب) قادرٌ على الاستنتاج ، انطلاقًا من الافتراض القائم على مسلمة الملائمة ، وكونه عارفًا بالعبارات الإحالية ، ما جاء في وصية ابن طاووس لابنه ، قال : " ثمّ تذكر يا ولدي محمد أغناك الله (جلّ جلاله) بتذكاره وأنواره وجعل إيثارك متابعا لإيثاره أنّ الوقت الذي شرفك فيه بالعقل وما هو له أهل ، وبعث إليك حفظة ملائكته تحتاج إلى أن تعرف أعداء مولاك وأعدائك الذين يريدون أن يحولوا بينك وبين نعمته وعنايته ويشغلونك عن شرف مراقبته وعن هيبته وعظمته ، فمنهم الشيطان الذي أهلك نفسه وحسد الذين يرجى لهم السلامة وقصدهم بالعداوة ، وقد جعل الله (جلّ جلاله) لك منه حصونًا منيعةً ودروعًا وسيعةً فلا تفارقها . منها : الاخلاص في طاعة رب العالمين (...) ، ومنها : الإيمان والتوكل على الله (جلّ جلاله)[٣]، إنّ ابن طاووس كان يعي أنّ المستمِع (المتلقي) عارفًا بأعداء الله (جلّ جلاله) واعداء الانسان (الشياطين)، فالمعنى المستلزم الذي يمكن تقديره هو عداوة الشيطان لله (عزّوجلّ)، والانسان، لأنّه يحول بين العبد وربّه ، ويمكن بيان هذا التعاون في ضوء المخطط الآتي :

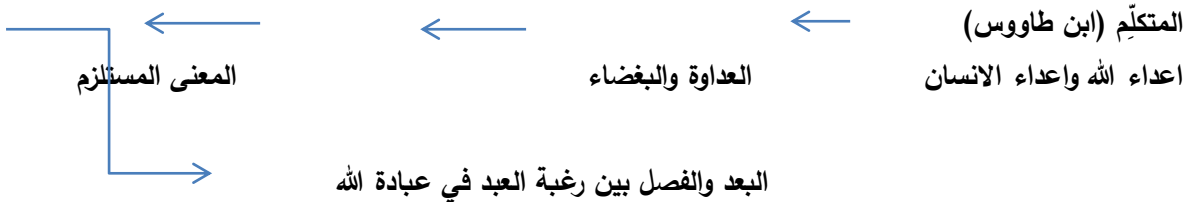

وفي قوله " وجعل الله لك حصونًا منيعةً ودروعًا وسيعةً فلا تفارقها ..." ، يتجلى مبدأ التعاون، في افتراض ابن طاووس الحليّ معرفة ولده المعنى المستلزم للحصون والدروع ، وأنّه قادر على استنتاج الدلالات في ضوء الافتراضات القائمة على مُسَلَمة الملائمة ، وقد ذكر ابن طاووس ثِيْمَتين لهذه الحصون المنيعة والدروع الوسيعة، وهما : الإيمان، والأخلاق؛ لأنّه عرف أنّ السامع قادر على استظهار مجموعة من التنبيهات ، ويمكن بيان هذا التعاون في ضوء المخطّط الآتي :

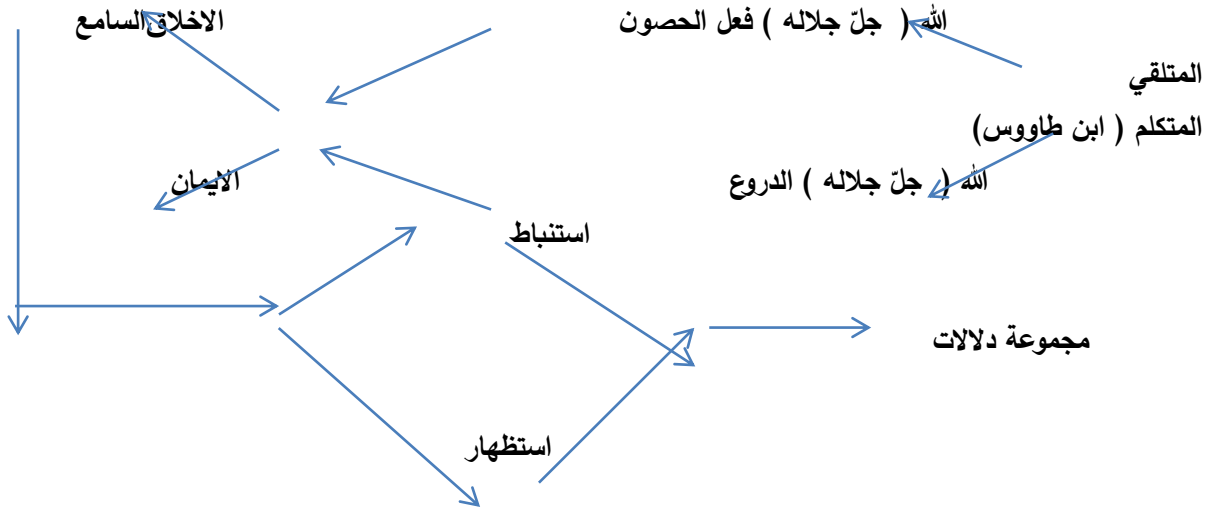

(٢) الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي : علي محمود حجي الصراف : ٩ ، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٢٣.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة : ٩٢ .

و يتجلى هذا المبدأ في حشد من الخطابات الدينية الطاووسيّة ، إذ ذكر ابن طاووس واعظًا ولده بالتقوى ومراقبة الله(عزّ و جل) أنّ الموت ملاقينا في أي لحظة ، لا يعرف زمانًا ولا مكانًا ، وهو محيط بنا ، والآيات والدلالات كلُّها ترمز إليه، قال: " جرى لي مع من ينسب إلى العلم، فإنّه حضر عندي يوماً، وأنا جالس على تراب أرض بستان، فقال : كيف أنت؟ فقلت له : كيف يكون من على رأسه جنازة ميت وعلى أكتافه جنازة ميت وعلى سائر جسمه أموات محيطون به، وفي رجليه جسد ميت ، وحوله أموات من سائر جهاته وبعض جسده قد مات قبل ممات جسده ؟ فقال كيف هذا فما أرى عندك ميتا ؟، فقلت له ألست تعلم أن عمامتي من كتان وقد كان حيا لمّا اخضرّ نباتًا في الأرض فيبس ومات وهذه صدرتي من قطن حيّ أخضر فيبس أيضًا ومات، وهذه (لالجتي) [٤] قد كانت من حيوان فمات وهذا حولي نبات قد كان أخضر فيبس ومات وهذا البياض في شعر رأسي وشعر وجهي قد كان حيًا بسواده فلما صار أبيض فقد مات وكل جارحة لا استعملها فيما خلقت له من الطاعات فقد صارت في حكم الأموات فتعجب من هذه العظة وصحيح المقالات" [٥]، ويبدو في ضوء هذا المتن الديني الطاووسيّ الوعظيّ أنّ ابن طاووس قد كشف حقيقة رحلة الإنسان، التي مصيرها التوقف (الموت) في ظل تَعْداد مجموعة من الآيات والعلامات التي تدلّ على تناقص عمر الإنسان، فهو يموت في كلّ لحظة، وقوله هذا يدلّ على أنّه عارف أنّ السامع سيستلزم دلالاتٍ ومعاني من صوره ورموزه .

فالمتكلم يجعل علاقة منطقية بين الكلام الظاهري الصريح ، والمعنى غير المباشر جاعلًا الكلام الظاهريّ بمثابة المقدمة التي تقوده إلى النتيجة الحتمية، وهو الكلام غير المباشر؛ لأنّ علوم اللغة منبثقة من فكرٍ علميّ قوامه المنطق[٦] .

فالعلاقة بين الكلام الصريح وغير الصريح يقتضيها العقل، ويقود المتلقيّ إلى وجودها وتحديدها، و يتجلى ذلك من وصية ابن طاووس الى ابنه في تحذيره من ذوي الرذائل (أعوان الظلمة) ، قال: " ومتى رأيت من أهل عقيدتك وعقيدة آبائك الطاهرين مَنْ تعتقد له شرفاً بولاية ومعونة أحد من الظالمين فينبغي أنْ تعرف أنَّه مسكينٌ مريضُ القلب سقيم الدين يحتاج إلى مَنْ يحمله إلى المستشفى ويعالجه تارة بالإحسان وتارة بالهوان حتىّ يفيق من سكرته ويعرف قدر مصيبته " [٧] ، يتضمّن هذا النص الكثير من الاستلزامات الحواريّة على النحو الآتي :

- وعظ وارشاد ، وتنبيهه على أنّ هؤلاء قد انحرفوا عن البوصلة الحقيقية (العقيدة الراسخة) ومالوا إلى الظالمين .

_ تحذير ابنه من ذوي الرذائل ، ولاسيّما أعوان الظلمة.

_ عدم اليأس من أفعال هؤلاء ، ولزوم هدايتهم وارجاعهم إلى عقولهم من أجل الوقوف على المحجة البيضاء والصراط القويم .

–التهكم من أعوان الظلمة، لفعلهم القبيح، واستقبالهم بوجه مكفهر حتى يعرفوا أنهم مخطئون مذنبون.

حقاً وصدقاً أنّ مقامات الكلام تكون بحسب مقاصد المتكلم وأغراضه، وقد تنبه السكاكي (٦٢٦هـ) إلى هذا التعامل ليبوحَ بالفكرة التي انطوى عليها كتابه (مفتاح العلوم) ، قال: " مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية،

(٤) اللاكة : النِّعالُ .

(٥) كشف المحجة لثمرة المهجة : ٩٨.

(٦) اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربيّ والمنطق الرياضيّ ، مها خير بك ناصر:١٢٣.

(٧) كشف المحجة لثمرة المهجة : ١١٦.

ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ يباين مقام الهزل" [٨]، فضلاً عن ذلك،لا بدّ من الإحساس بالسياق النصّي التداوليّ بوصفة تقنيّة مهمة تُسهم في التعبير عن المقاصد والأغراض التواصلية التي أُنجزت للتعبير عنها، نحو الشكّ والشكاية والتهنئة والوعد والوعيد والمدح والذم والرغيب والترهيب.

وهذا الاستيعاب لمقامات الكلام بحسب مقاصد المتكلم وأغراضه، والإحساس بالسياق التداولي نتحسَّسه في بيان ابن طاووس الحليّ قوله تعالى : ((**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**)) [سورة التوبة: ٦٨] قال: " أرى كان المهم من الآية ما تعرض له ؛ لأنَّ كل ما ينبغي أنْ يذكر كيف ورد لفظ (الوعد) في موضع (الوعيد) والوعد حقيقة لما ينفع الموعود به ويسره ؟(...) أقول: لعل المراد أنَّه لمّا كان هذا القول من الله تعالى لهم في الحياة الدنيا ليردعهم بذلك عن الكفر والنفاق فقد صار نفعاً لهم باطناً وسعادة لهم إنْ قبلوها باطناً وظاهراً؛ لأنّ الوعيدَ إذا أخرجه صاحبه ليخرج من يوعده مما يستحق به الوعيد إلى ما يستحق به الوعد، فقد صار باطنه وعداً، وإن كان ظاهره وعيداً"[٩] ، تأسيساً على ما سبق يمكن القول: إنّ (الوعد) الذي يفيد السرور والجزاء الحَسَن، جاء في مقام(الوعيد) والثقل على النفس فكان العدول عنه إلى ما هو أقوى منه دلالة وأشدُّ وطأة على المتلقّي فمقصد العدول – بحسب قول ابن طاووس – يرمي إلى ترسيخ الوعيد والجزاء العظيم (السلبي) لهؤلاء (المنافقين والمنافقات والكفار) ليطبعَ سلوكهم التواصلي التداولي.

ونلمح هذا الفهم والتصور لهذه الظاهرة في بيان ابن طاووس الحليّ في خطابه الديني ، تأمل معنا ردّه على الفراء في تأويل قوله تعالى ((مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)) [سورة الأنعام : الآية] ، قال الفرّاء: " وقوله: من جاء بالحسنة: بلا إله إلّا الله، والسيئة: الشِّرك" [١٠] ، قال ابن طاووس: " أقول: هذا تأويل غريب غير مطابق للمعقول والمنقول؛ لأنَّ لفظ (لا إلهَ إلّا اللهُ) يقع من الصادق والمنافق، ولأنّ اليهود تقول: لا إله إلّا الله وكل فرق الإسلام يقول ذلك (...) أقول: وقد رأيت النقل متظاهرًا أنّ الحسنة معرفة الله ورسوله (α) ومعرفة الذين يقومون مقامه وهذا مطابق للمعقول والمنقول وللبشارة؛ لأنّ أهل هذه الصفات ناجون على اختلاف الفرق، واختلاف التأويلات". [١١] ، ومن هنا فإنّ ابن طاووس قد تجاوز المعنى المباشر لكلمة (الحسنة) بـ(لفظ لا إله إلّا الله)، والسيئة بلفظ (الشرك) إلى معانٍ مستلزمة معاني ثوانٍ مستفادة من السياق واللوازم الخطابيّة، وتفاعلاتها، فضلاً عن ذلك فإنّ سياق الحال والمقام جعله يَفْطِنُ إلى المعاني المستلزمة وهذا ما يوافق الواقع ويتناغم معه في يومنا فكم حركات وجبهات وفرق تحمل هذه الراية راية (لا إله إلّا الله) وهي تَمْرق في الدين وتهدم الإسلام كـ(القاعدة ، وجبهة النصرة ، وتنظيم داعش) وغيرها !!! .

ويظهر أنّ الخطاب الديني الطاووسيّ لم يقتصر على الإبلاغ والتواصل فحسب بل تضمن مجموعة من القواعد الأخلاقية والاجتماعية بخلاف نظرة التداوليين الذين ركّزوا على الجانب التبليغيّ في الخطاب، وتناسوا قوانين أخرى اجتماعية وأخلاقيّة ولم يلتفتوا إلى الجانب التهذيبيّ والارشادي الذي نقطع أنّه الأصلُ في خروج العبارات عن إفادة المعاني

(٨) مفتاح العلوم : ٢٥٦.

(٩) سعد السعود : ٥٧٩.

(١٠) معاني القرآن للفراء : ١/ ٣٦٧.

(١١) سعد السعود : ٥٩٨– ٥٩٩.

الحقيقية والمباشرة ، وهذا ما وجدناه في أدب ابن طاووس الحليّ ولاسيّما خطابه الديني الذي جاء مشحونًا بالمعانيّ الحقيقية المباشرة ، والمعانيّ غير الحقيقية (غير المباشرة) التي تنتظم في سياقات إنتاجيّة توليدية .

ويتحصل أنّ الخطاب الدينيّ نوعان ،أحدهما : خطابٌ يسلك مسلك النقد والاستدلال بالعقل، والآخر : يسلك مسلك الوعظ والإرشاد، ويجب الحكم على الخطاب الإسلاميّ بمدى وفائه بمقتضيات المقام الذي يتحدّد بنوعيّة الآخر ، فهناك الآخر الذي يفهم الخطاب النقدي أو الاستدلاليّ ولا يتحمل إلاّ مسؤولية هذا الفهم العقليّ ، وهو على نوعين الذي يشارك المتكلم الثقافة ، ولا يشاركه العقيدة ، والآخر الذي لا يشاركه العقيدة والثقافة، وهناك الآخر الذي يفهم الخطاب الوعظيّ أو الاستشهاديّ ويتحمل مسؤولية هذا الفهم النصيّ ، وهو على نوعين : الآخر الذي يشارك المتكلم الثقافة والعقيدة ويشاركه العمل بالعقيدة ، والآخر الذي يشاركه الثقافة والعقيدة ولا يشاركه العمل بالعقيدة ، وبناءً على هذا التقسيم للآخرين يتبين أنّ الخطاب الوعظيّ أخصّ والخطاب النقدي أعمّ، إذ يزيد عليه قيد العمل ، وفي هذا دليل قاطع على أنّ الخطاب الأول خلافًا للرأي الشائع أعلى رتبة من الثاني، فلا يخاطب الآخر وعظًا أو استشهادًا حتى يخاطب نقدًا أو استدلالاً مع العلم بأنّ الانسان لا ينفك يمارس الاستدلال في عامة شؤون الحياة عامة، فمن يتحمل مسؤولية فهم الخطاب الاستشهادي أجدر به أنْ يتحمل مسؤولية فهم الخطاب الاستدلاليّ(١٢).

والمتأمل في الخطابات الدينية الطاووسيّة يرَى التواشُج والتعانُق بين الجانبين (التبليغي التواصلي)، و (التهذيبيّ الإرشاديّ) وهذا ما تنبهنا عليه في ظل وقوفنا على أدبه وهو ملمحٌ جدير بالتأمل والدرس في أبحاث الخطاب من جهة، والبحث في المنهج التداوليّ بوصفة منهجًا لسانيًا حديثًا من جهة أخرى .

ويرى الفيلسوف المغربي (طه عبدالرحمن) أنّ مبدأ التهذيب هو المبدأ التداولي الذي ينبني عليه الحوار، وينبني هذا المبدأ على التزام المتكلم والمخاطب في تعاونهما؛ من أجل تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التهذيب فضلًا عن ضوابط التبليغ، وقد فرّع هذا المبدأ إلى ثلاث قواعد: قاعدة التعفف، وقاعدة التشكيك، وقاعدة التودد (١٣).

وسقنا هذا التقديم من أجل تكشيف معاينتنا المتواضعة لبيان ابن طاووس الحليّ قوله تعالى : ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)) [الحج: من الآية: ٥٢] قال: " وكذا يقول كثير من المفسرين: إذا قرأ النبيّ أو الرسول ألقى الشيطان في أمنيته (وهو مستبعد من أوصاف المرسلين والنبيين؛ لأنّه (جلّ جلاله) قال ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ))، فكيف تقبل العقول أن المراد ما ذكره المفسرون من أنّ كلّ رسول وكل نبي يدخل الشيطان عليه في قراءته وإنه ما يسلم منهم واحد من الشيطان؟ وإنما لعلّ المراد أنه ما كان رسول ولا نبي إلا ويتمنى صلاح قومه، واتّباعهم لآياتنا فيلقي الشيطان أمنيته أمانيّ له يخالف أمنيته فينسخ الله [تعالى] ، أماني الشيطان بكثرة الحجج والآيات ويحكم الله آياته وبيّناته ويظهره للنبي والرسول على الشيطان أو نحو هذا التأويل مما يليق بتعظيم الأنبياء وخذلان الشيطان". (١٤)

(١٢) ينظر : الخطاب الإسلاميّ إلى أين ؟ : ٢٥ – ٢٦ . الخطاب الاستشهادي الخطاب القائم على النصوص الدينية الأخلاقية

(١٣) ينظر : ينظر : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبدالرحمن : ٤٦– ٤٧.

(١٤) سعد السعود : ٥٧٦ .

وتأسيساً على معرفة الرسل والأنبياء بالله (عزّ و جل) فإنّ الواجب يحتّم أن يكونوا بعيدين عن وساوس الشيطان، وأمانيّه الباطلة، وحاشا للرسل والأنبياء أن يتلبسوا بأمانيّ الشيطان ، ومن هنا يستلزم الخطاب دلالة تتواشج وتتناغم مع قاعدة التأدب التداولي في خضوعهم السلوكي ولكونه متواصلًا مع شروعهم بالعمل ، وفراغهم منه.

وتراهن قاعدة التعاون أيضاً على مقاربة المعنى أو الدلالة، ولكن ليس المعنى الحرفي المباشر الذي تؤسسه الجملة في ضوء العلاقات التركيبية والدلالة التي تقدمها الألفاظ، بَلْ تراهن على المعنى الضمني أو الرسالة المتضمّنة التي يتضمنها الملفوظ من دون أنْ يشير اليها مباشرة ، وهي رسالة يؤسسها المتكلم عبر نسقية خاصة يتوحّد فيها اللساني بالسياقي والاجتماعي ، ويدركها المتلقيّ عبر نسقية شبيهة نسبياً بنسقية المتكلم وتشكّل هذا الميثاق التواصلي بينهما ، والذي يسهم في عملية التواصل ونجاحها [١٥].

و يتجلى مبدأ الاستلزام الحواري في ردّه على الرماني في(نكته)، في مسألة حذف الجواب وهو أبلغ من الذكر، قال: " ومنه حذف الأجوبة وهو أبلغ من الذكر وما جاء منه في القرآن كثير، كقوله جلّ ثناؤه : ((**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ**)) : [الرعد: ٣١] فكأنّه قيل: لكان هذا القُرآن"[١٦] ، قال ابن طاووس الحليّ: " ولعلّ حذف الجواب ههنا إن كان يمكن أنّ الله تعالى لو قال: لكان هذا القرآن، كان قد وقع هذا الأمر الذي أخبر به في تسيير الجبال وتقطيع الأرض وكلام الموتى، وكان يحصل بذكر الجواب وقوع هذا التقدير ولم تقتض الحكمة ذلك، أو لعلّ المراد أنّ الله تعالى لو قال الجواب كان كل مَنْ قرأ هذه الآية من الأولياء بجوابها الذي يذكره الله يتهيأ له أن يسيّر بهما الجبال، ويقطع الأرض ويحيي الموتى فأمسك الله تعالى عن ذكر الجواب؛ لما يكون فيه من الأسباب التي يليق ذكرها عنده جلّ جلاله بالصواب".[١٧] ، والذي يبدو أنّ ابن طاووس قد ألمح إلى أنّ حذف الجواب جاء لأمرين: الأول: حكمة الله (عزّ و جل) التي تقتضي عدم التصريح بالجواب، فجاء الخطاب على هذه الهيأة تاركاً مهمة التوسيع وإظهار الجواب إلى استدلالات مباشرة انطلاقاً من مراعاة المتكلم للقواعد. والآخر: التوقف عن ذكر الجواب منعاً من ذكر وجوه لا يليق ذكرها من غيره من جهة، وأنّها من مختصاته من جهة أخرى.

إنّ أول ما يستوقفنا في هذه الآية المباركة أنّ موضوع حذف الجواب يدخل في أمثلة للاستلزام الحواري الناتج عن (خرق قاعدة الكَمْ) بلحاظ عدم تقديم المعلومات اللازمة وهذا لا يمكن إرجاعه إلى قصور في الخطاب، والمخاطِبِ ؛ بل يستلزم جملة من الدلالات والطرائق البيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح.[١٨]

من المواضع التي عمدنا إلى معاينتها ، والتي تتجلى فيها ظاهرة الاستلزام الحواريّ في مجال التشبيه فإنّنا نجد تحولًا من المعنى إلى معنى المعنى، أو نوعًا من الانتقال إلى المعنى الثاني المستلزم فتتضح الرؤية الدلالية والتداولية [١٩]، قال ابن طاووس في بيان تعقيبه على الرمانيّ في نكته :" فمن ذلك قوله (جلّ جلاله) : چ چ چ چ چ چچ ، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بُطْلان المتوهم مع شدّة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل : يَحْسبه الرائي ماءً ، ثمّ يظهر أنّه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأنّ

(١٥) التخييل وبناء الأنساق الدلالية (نحو مقاربة تداولية) : ٢٩ ـ ٣٠ .

(١٦) النكت في إعجاز القرآن: الرماني: ٧٠

(١٧) سعد السعود: ٥٦٢– ٥٦٣

(١٨) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني : ١١٤.

(١٩) ينظر : مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكيّ ، باديس لهمويل : ٢٠٠.

الظمآن أشدُّ حرصًا عليه وتعلّق قلبًا به، ثمّ بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار ــ نعوذ بالله من هذه الحال " (٢٠).

وقد فطن ابن طاووس الحليُّ إلى استلزام حواري آخر، يختلف عمَّا تنبه عليه الرمانيُّ قال :" ولعلّ في التشبيه غير ما ذكره الرمانيّ ؛ لأنّ الله تعالى لو قال: كسراب بروضة ، أو لم يذكر بقيعة ما كان التشبيه على المبالغة التي ذكرها لأنه لما كانت أجساد الكفار الذين يعملون أعمالًا كالسراب كالسعة في الجواب الخالية من النبات واستعمال فوائد الألباب صارت كالسعة حقيقة ولعل معنى التشبيه أنْ يحسبه الظمآن ماءً أنَّ الكفار لما ادعوا في الحياة أنّ أعمالهم تنفعهم، وحكى الله تعالى عنهم في القيمة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون يدل على أنَّهم يعولون على أعمالهم التي صاروا يعتقدونها أنّها تخلصهم من الأهوال والهوان كما حسب الظمآنُ السرابَ يزيلُ ما عنده من الظمأ فحصلَ في الخيبة وذهاب الحياة والتلف بالعيان، وكذلك خاف الكفار في أعمالهم وحصلوا في تلك النفوس عذاب الطغيان " (٢١) .

وهذه الدلالةُ الجديدةُ الناتجةُ هي الدلالة المستلزمة من ذلك التفاعل، وتقابل في الدرس التداولي الحديث ما يسمى بالمعنى المستلزم، أو القوة الإنجازية المستلزمة من علاقة المشابهة والاختلاف معاً في التشبيه، وتفاعلهما بحيث لا يكون هناك تطابق كليٌّ في المشابهة، نتيجة وجود عناصر المشابهة، والاختلاف، لإحداث ناتج دلاليّ جديد يتجاوز مستوى الدلالات الوضعية (أصل المعنى) وينزاح عنها إلى الدلالات الاستلزامية الجديدة، وهذا ما يتضح في قوله تعالى : چ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ، كيف وُصفت أعمالُهم القبيحةُ والسيئةُ بصفة مضافة إلى صفتها ؟ وهي صفة القبح والسوء إلى صفة الهباء والاندثار والتلاشيّ ، فتتجاوز الكلمة دلالتها الوضعية إلى معنى آخر يوميء بالهلاك والخسران ، لأنّه يستحيل عقلًا أنْ تكون الأعمال سرابًا .

ومن النصوص الدينية الطاووسيّة التي تواخي قواعد التعاون (الكرايسّية) ، قوله : " قد نبهّناك على صفة المستغفرين، وروينا لك حديث مولانا أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام) وتأدب بغاية الإمكان ، وكن صادقاً بقولك إنّك تتوب توبة عبد ذليل ، فليظهر الذلُّ على سؤالك وعلى لسانِ حالك وقلت : خاضع ، وليكن الخضوع على وجه مقالك وفعالك ..." (٢٢)، ونظير ذلك قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)) [سورة النساء: الآية ٥٩] ، قال ابن طاووس في بيان المراد من أولي الأمر محتجًا على قول الزمخشري: " أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شك، وهو أنْ أمرهم أولًا بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدّون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئًا إلى كتاب ولا إلى سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة " (٢٣).

(٢٠) سعد السعود : ٥٦٤ (سورة النور / ٢٤) ، وينظر : النكت في إعجاز القرآن ، الرماني : ٨١ ــ ٨٢ .

(٢١)سعد السعود : ٥٦٤

(٢٢) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة :٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(٢٣) الكشاف ، الزمخشري : ١/ ٥٧٧ .

وهذا التحاجُّ الذي بلغ مبلغه ، قال ابن طاووس: " أقول : فإذا كان الأمر عنده كما أشار إليه واعتمدت عليه من أن العطف بأولى الأمر على الله ورسوله يقتضى من تساوى من عطف عليهم فهل يبقى لك مندوحة عما تقوله الإمامية في كمال صفات أولي الأمر كما كانت صفات رسول الله (α) كاملة في العصمة والأمن من وقوع معصيته باطنة أو ظاهرة والّا جاز عنده ان يطاع غير المعصوم فيما أطاع الله فيه ويعصى فيما عصى الله فيه جاز لأمراء الجور ان يقولوا له : أطيعونا فيما أطعنا الله فيه ، وأعصونا فيما عصينا الله فيه ، فاذن لا يبقى له مخرج على ما فسر هذه الآية إلّا القول والاعتقاد لمذهب الامامية " [٢٤] .

ولا يخفى أنّ قول ابن طاووس الحليّ توجّه إلى قول الزمخشري مُطْلِعًا إيّاه على ما يفتقده ويعرفه ، مطالبًا إيّاه بمشاركته اعتقاداته ومعارفه وهذه الحواريّة والحِجاجيّة يكمن فيها البعد التداوليّ ، القائم على التعاون ، واتخاذ القرارات [٢٥]

وباختصار قدّم لنا المتن الطاووسيّ بيانَ حقيقةِ أولى الأمر، فضلًا عمّا أشار إليه الزمخشري من صفات التكامل ولاسيّما أداء الأمانات وإقامة العدل ، والرجوع إلى الكتاب والسنة ، وأنّ أمراء الجور ابتعدوا عن الكتاب فهم اللصوص المتغلبة .

إنّ صفات التكامل الإيمانيّ المثالية المتكاملة كأنّها صفات رسول الله (α) ، من هنا فإنّهم معصومون، فإطاعتهم واجبةٌ، إنّ القواعد الحِجاجيّة الإقناعيّة التي قدّمها المتن الطاووسيّ، تمّت من طريق عملية التحاور بالطريقة المُثلى القائمة على التعاون والعقلانيّة والفعالية .

المبحث الثاني: الحِجاج

الحِجاج مصدر مادة (ح ج ج) ، التي لها أصول أربعة ، أقربها لمادتنا (القَصْد) ، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) : " ومُمكنٌ أَنْ يكونَ الْحجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا ؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، يُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبتهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلكَ الظَّفْرُ يَكونُ عِندَ الْخُصومةِ، وَالْجمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدرُ الحِجاج "[٢٦].

ولم يخرج المعنى الاصطلاحيّ لمفهوم (الحِجاج) ، عن دلالته اللغويّة ، مواجهة الآخر بوساطة الأدلة والبراهين من أجل الظفر بالغلبة ، والحِجاج أيضًا كل منطوقٍ موجه إلى الآخر لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها[٢٧].

يرى الدكتور صابر الحبّاشة إنّ اندراج الحِجاج في المباحث التداوليّة أمرٌ قد جرى في عرف الباحثين، ويُعدّ الحِجاج بابًا رئيسًا في المباحث التداوليّة ، إذ كانت المقارنة والمقاربة ضربًا من التنبيه إلى نقاط التقاطع أو نقاط التباعد بين الرؤية والتطبيق التراثيين، والرؤية والتطبيق الحديثين المنتسبين إلى التقاليد التداولية، ومن هنا حاز الحِجاج منزلة في التداوليّة بوصفه أحد أهم أركان التداوليّة إلى جانب نظرية الأعمال اللغويّة [٢٨].

إنّ أخذ الحِجاج في الحسبان في الدراسات التداوليّة هي خصّيصة للسنوات الثمانين من القرن العشرين، تشهد على ذلك البيبلوغرافيا ، وتوضحه المفاهيم ، إذ يجمعُ (كرايس) بين المنطق والحِجاج، وقد عاد (ديكرو) واصفًا آليات اللغة الحِجاجيّة، قائلًا بنظريّة السلالم الحِجاجيّة [٢٩].

---

(٢٤) سعد السعود : ٣٥٩ ـ٣٦٠ .

(٢٥) في أصول الحوار وتجديد الكلام ، طه عبدالرحمن : ٣٧ .

(٢٦) مقاييس اللغة : مادة (حجج) : ٢/ ٣٠

(٢٧) ينظر : الكليات، ابو البقاء الحنفي الكفوي : ٤٠٥ – ٤٠٦ .

(٢٨) ينظر: التداولية والحجاج (مداخل ونصوص) : ٧

(٢٩) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠-٢١ .

وممّا ورد من حجاجه أنّ الخليفة المستنصر لم يكف عن مناشدته لتولي منصب الإفتاء ونقابة الطالبيين، إلا انّه أبى الموافقة أو القبول مما اضطره إلى الاستعانة بأحد المقربين لـ(رضيّ الدين بن طاووس) وخلصائه لإقناعه بالقبول، وجرت بين الاثنين محاورة دلّت على قدرة بالغة، و محاججة قلّ نظيرها في الاعتذار تشهد لـ(ابن طاووس) بعلوّ كعبه في المحاججة، والمجادلة والنقاش اذ وازن بينه وبين الشريفين الرضيّ والمرتضى اللذين توليّا نقابة الطالبيين حين قال له صديقه: إمّا أنْ تقول أنَّ الرضيّ والمرتضى كانا ظالمين أو تعذرهما فتدخل في مثل ما دخلا فيه ، فلم يوافقه رضيّ الدين بأنْ قال: " أولئك كان زمانهم زمان بني بويه والملوك شيعة وهم مشغولون بالخلفاء والخلفاء بهم مشغولون، فتم للرضيّ والمرتضى ما أرادا من رضاء الله (جلّ جلاله) " [٣٠].

لاحظ معنا القدرة البالغة، وحسن الاعتذار الذي اقتضته التقية التي كان يؤثرها في مثل هذه المواقف؛ إذ قال بعد ذلك : إنّي قلتُ بذلك على سبيل التأدب معهما وإلاّ فلستُ براضٍ عليهما ، ولا على فعلهما ، وليسا معصومين حتى يكون فعلُهما حجةً ، فهما داخلانِ تحت من يُردّ عليه مثل هذه الأفعال [٣١]، ويمكن استعراض أصناف الحجج، وأشكالها التي تزخر بها النصوص الدينية الطاووسيّة، ومنها :

أولاً: قياس التمثيل:

استعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحِجاج لتقريب الصورة وايضاح الفكرة ، ويقصد به " إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك بأنْ يقيس المستدل الأمر الذي يدّعيه على أمر معروف عند من يخاطب، أو على أمر بديهي لا تنكره العقول ويبيّن الجهة الجامعة بينهما " [٣٢] ، فمن ذلك ما ورد في حجاجه مع فقيه من فقهاء المستنصرية ، يقول : " قُلْتُ له يا فلان ما تقول لو أنَّ فرساً لك ضاعت منك وتوصلت في ردها إليّ أو فرسًا لي ضاعت مني وتوصلت في ردها إليك أما كان ذلك حسنًا أو واجبًا فقال بلى ، فقلت له : قد ضاع الهدى إمّا مني وإمّا منك والمصلحة أنْ ننصف من أنفسنا وننظر ممّن ضاع الهدى فنرده عليه ، فقال نعم : فقلت له : لا أحتج بما ينقله أصحابي لأنّهم متهمون عندك ولا تحتج بما ينقله أصحابك لأنّهم متهمون عندي أو على عقيدتي، ولكن نحتج بالقرآن، أو بالمجمع عليه من أصحابي وأصحابك ، أو بما رواه أصحابي لك وبما رواه أصحابك لي ، فقال : هذا إنصاف ... " [٣٣] .

وممّا ورد على هذه الشاكلة من الحِجاج قوله في اثبات غيبة الإمام الحجة عجلّ الله فرجه : " وقلت لهم وأمّا ما أخذتم عليه من طول غيبة المهدي (عليه السلام) فأنتم تعلمون أنّه لو حضر رجل وقال : أمشي على الماء ببغداد فإنّه يجتمع لمشاهدته لعل كل من يقدر على ذلك منهم فإذا مشى على الماء وتعجّب الناس منه فجاء آخر قبل أن يتفرقوا وقال أيضا: أنا أمشي على الماء فإنّ التعجب منه يكون أقل من ذلك فمشى على الماء فإنّ بعض الحاضرين ربما يتفرقون ويقل تعجبهم فإذا جاء ثالث وقال: أنا أيضا أمشي على الماء فربما لا يقف للنظر إليه إلا قليل فإذا مشى على الماء سقط التعجب من ذلك فإن جاء رابع وذكر أنّه يمشي أيضًا على الماء فرُبّما لا يبقى أحد ينظر إليه ولا يتعجب منه وهذه حالة المهدي (عليه السلام) لأنّكم رويتم أنّ إدريس حي موجود في السماء منذ زمانه إلى الان ، ورويتم أنّ الخضر حيٌّ موجود مذ

(٣٠) كشف المحجة لثمرة المهجة : ١١٢ .

(٣١) ينظر: والسراج الوهاج : ٣١.

(٣٢) مناهج الجدل في القرآن ، زاهر عواض الألمعي : ٧٢ .

(٣٣) كشف المحجة لثمرة المهجة : ٧٦.

زمان موسى (عليه السلام)أو قبله إلى الان ، ورويتم أنّ عيسى حيٌّ موجود في السماء وأنه يرجع إلى الأرض مع المهدي (عليه السلام)، فهذه ثلاثة نفر من البشر قد طالت أعمارهم ، وسقطَ التعجبُ بهم من طول أعمارهم فهلا كان لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وآله أسوةٌ بواحدٍ منهم أن يكون مِنْ عترته آية الله (جلّ جلاله) في أمته يطول عمر واحد من ذريته[٣٤].

ومن الصور الحِجاجية التمثيلية التي باشرها ابن طاووس الحليّ استعماله أمثلة مشهورة من أجل الوصول إلى أقصى غايات التقريب التداوليّ وملاطفته، من ذلك استعماله مثل (إيّاك أعني واسمعي ياجاره) [٣٥] ففي معرض تفسيره قوله تعالى: ((**عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَآءهُ الأَعْمَى**)) :[عبس/ ١ــ٢] قال: " ولعلّ المراد معاتبة من كان على الصفة التي تضمنها السورة على معنى (إيّاك أعني واسمعي يا جارة) وعلى معنى قوله تعالى في آيات كثيرة يخاطب به النبيّ ، والمراد بها أمته دون أن تكون هذه المعاتبة للنبي (α) لأنّ النبيّ إنّما كان يدعو المشرك بالله بأمر الله إلى طاعة الله وإنّما كان يعبس لأجل ما يمنعه من طاعة الله وأين تقع المعاتبة على من هذه صفته والاّ فأين وصف النبي الكامل من قول الله(جلّ جلاله) : ((**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى**)) [عبس:٥ ــ ١٠] ؟ فهل هذا أقيم عنه تعالى : ((**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**)) [النجم:٢ـ ٤] وهل كان النبي ابدا يتصدى للأغنياء ويتلهى عن أهل الخشية من الفقراء والله تعالى يقول عنه : ((**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**)) [التوبة:١٢٨] "[٣٦] .

ثانيًا: الحجة الخبرية (الحجة النقلية)

في ضوء استقراء تراث ابن طاووس الحليّ نجد أنّه قد أفاد من القصص والوقائع من أجل التقريب التداولي ، فضلاً عن ذلك ربط المقدمات بالنتائج والعلل بالمعلولات ، وهذا مبدأ مهم في التواصل والتحاور ، واستعمل ابن طاووس شكلاً آخر من أشكال الحِجاج وهو ما يُدْعَى بالحجة الخبرية (الحجة النقلية) ، قال ابن وهب الكوفي (ت٣٣٥هـ) : " وأمّا الأمثال والقصص فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال ويبيّنون للناس تعرّف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً ، ولذلك قال الله (عزّ و جل) : ((**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**)) [سورة الاسراء / ٨٩] (...)، وإنّما فعلت العلماء ذلك لأنّ الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدلّ على صحته والمثل مقرون بالحجة ، ولذلك جعلته القدماء أكثر آداباً وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ، ونطقت ببعضه على ألسنة الطير والوحش ، وإنّما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها " [٣٧].

---

(٣٤) كشف المحجة لثمرة المهجة : ٥٥.

(٣٥) عجز بيت شعري أجري مجرى المثل :

يابنت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره إياك اعني واسمعي يا جاره

ينظر : مجمع الأمثال للميداني : ١/ ٥٠ .

(٣٦) سعد السعود: ٢٤٩.

(٣٧) البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب الكوفي : ١٤٥ ــ ١٤٦. الاسراء / ٨٩ .

تستند هذه الحجة إلى الأحداث التاريخية المشتركة بين أشخاص عدة أو بين جميع الناس ، ليتخذ منها ـــ ابن طاووس ـــ دليلاً لما يدعيه المتكلم من أطروحات ، وهي بذلك ترتكز على بنيات ووقائع خارجية ، واقعة في الماضي بما يختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخية، ذات قيم مجتمعية ، تحظى باحترام الأفراد واهتماماتهم [٣٨].

ويبدو أنَّ ابن طاووس قد سعى جاهداً من أجل تقريب المجالات التداولية للحصول على أكبر قدر من تفاعلات التواصل والابلاغ بينه وبين متلقيه ، فقد وصف أهل الكهف أنَّهم مماليك قال : " واعلم يا ولدي محمد حفظك الله (جلّ جلاله) عن الخذلان وصانك بخلع الإحسان والأمان أن أهل الكهف كانوا مماليك لا يفقهون وسحرة فرعون كانوا سكارى بالكفر ما يعتقد ناظرهم أنَّهم كانوا يفيقون فتداركهم الله (جلّ جلاله) برحمة من رحماته الجميلة ؛ فأمسوا عارفين به مخلصين من أهل المقامات الجليلة وقد عرف كل خبير أنَّ امرأة فرعون ومريم بنت عمران وأم موسى(B) نساء ذوات ضعف عن الكشف توليهُنَّ الله (جلّ جلاله) بيد اللطف والعطف حتى فارقت زوجة فرعون ملك زوجها ودولته وحقرته وهونت عقوبته وبلغت مريم إلى كرامات وسعادات حتى أنّ النبيّ المعظم في وقتها زكريا يدخل عليها في المحراب فيجد عندها طعاما يأتيها من سلطان يوم الحساب بغير حساب ، ويفهم من صورة الحال أنَّ زكريا ما كان يأتيه مثل ذلك الطعام؛ لأنّه (عليه السلام) قال:(أنّى لكِ هذا ؟) على سبيل التعجب والاستفهام، وهو أقرب منها إلى صفات الكمال ، وهذه أم موسى يوحي الله تعالى إليها بغير واسطة من الرجال حتى يهون عليها رمي ولدها ومهجة فؤادها في البحر والأهوال " [٣٩] وقد استعمل ابن طاووس هذه الحجّة من أجل التقريب التداوليّ ، وترسيخ الصور والمشاهدات بوصفها أدوات قريبة للحس والعقل ، قال ابن طاووس : " وكفى سلفك الطاهرين حجة على المخالفين وحجة للموافقين التابعين عليهم يوم المباهلة مباهلة المسلمين للكافرين وكان ذلك اليوم من أعظم الأيام عند جدك محمد سيد المرسلين صلوات الله عليه وآله ، (ومعجزاته) وكشف الحجة للسامعين ولمن يبلغهم إلى يوم الدين ، فإن كل من عرف تلك الأصول عرف عدد الاثني عشر على اليقين وهل كان كمال صفات رب العالمين وكمال صفات رسول المفضل على الأولين والآخرين أن يكون نوابهما غير كاملين معصومين؟ وهما يريدان أن يحفظوا أسرارهما وشريعتهما ويقوموا بأمور الدنيا والآخرة قيامًا مستمرًا بغير تهوين ولا توهين " [٤٠] .

فأراد ابن طاووس أنْ ينتفع المخاطَبون بالذكريات ، وأنْ يفيدوا من العظات " فإنّ لنا تاريخاً إنسانيًا حافلاً فيه لكل عظيمة ذكرى ، ولكل مُلمَّة تجربة وإنّ لنا دستورًا إلهيًا كاملًا فيه لكل مُضِلّة هُدًى ولكل قضية بيّنة ، فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هدانا من وحيّ الله استقمنا على الطريق التي نهجها الرسول (α) فتوافينا معًا على الغاية ، وانتهينا جميعًا عندها إلى الوحدة " [٤١].

صرّح ابن طاووس بظهور الحُجة ، والنكت في تفسير قوله تعالى : **((قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ))** [سورة الجمعة: ٦] ، قال : " اعْلم أنّ هذه الآية من أقوى الآيات الباهرات على صدق النبي (α)، وهي كالمباهلة التي جرت مع نصارى نجران كالتّحدّي بالقرآن ، بَلْ رُبّما كانت أظهر

(٣٨) ينظر : عندما نتواصل نتغير – مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، عبدالسلام عشير : ٩٤.
(٣٩) كشف المحجة لثمرة المهجة : ٧٣ - ٧٤.
(٤٠) المصدر نفسه: ٥٢.
(٤١) وحي الرسالة : ٢١٢ .

في الحجة والنكت ؛ لأنّ بعضهم عند التحدي التجأ إلى البهت وقال لو نشاء لقلنا مثل هذا ولم ينقل ناقل، وما ادّعى عارف فاضل أنّهم تمنوا الموت وباهتوه بذلك عند نزول هذه الآيات " [٤٢] .

وقد فطن ابن طاووس الحليّ إلى أمر لافت ، وهو أنّ الخطاب القرآنيّ في الآية المباركة جاء من أقوى الآيات على صدق النبيّ (α) مستوحيًا حادثة المباهلة المباركة فضلًا عن ذلك آيات التحديّ في القرآن الكريم مقارنة معها ، بل قد تكون دلالة الآية أظهر حجّة ، ولم يكتفِ بذلك بل أشار إلى أنّها لو وظّفت توظيفًا صادقًا وصحيحًا في الاحتجاج بها على الكافرين ، فضلًا عن آية المباهلة التي عجز الأعداء عنها ؛ لكان ذلك أقرب مخرجًا ، وأوضح منهجًا ، وأسرع إلى فهم القلوب والآليات ، وأقطع لتأويل أهل الإرتياب [٤٣] .

نخلص أنّ ابن طاووس قَدّم لنا احتجاجًا باستشراف واستثمار واقعة تأريخيّة نستخلص العبر منها ، ذات بناء سرديّ يتلاءم مع مقصد النص القرآنيّ فضلًا عن ذلك أراد تذكير المخاطبين عن طريق النمط الحِجاجيّ القصصيّ القائم على النمط البرهانيّ باستيحاء معطيات هذه الحادثة العظيمة (المباهلة) ، ومقاربتها تداوليًا للواقع المعيش فيه .

واستلهم ابن طاووس من أخبار الأمم الماضية والقرون السالفة الكثيرَ من الحقائق والعبر في رفد خطابه الديني، ومدِّه بها ، وقد صرّح بهذه الحقيقة ، قال : " ومن وقف على أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية عرف أنّ الضلال كان الأكثرون داخلين فيه ، وأن الأقلّ هم الذين ظفروا بطاعة الله (جلّ جلاله) ومراضيه ؛ وقد صدق القرآن في كثير من الآيات : إن الهالك الأكثر وإنَّ الناجي الأقلّ الأصبر ، حتى قال(جلّ جلاله) في ذم الأكثر ممّن ذكره من القرون((**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**)) [يوسف: ١٠٦] وأخبر(جلّ جلاله) أنَّ الآيات والنذر لا تنفع مع قوم ينكرون في قوله (جلّ جلاله) ((**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ**)) [يونس: ١٠١] " [٤٤] ، وممّا يلحق بهذه الفقرة ، ويلزمها أنْ نذكر أنّ ابن طاووس قد نقل رسالةً للسيد زيد بن علي بن الحسين (ع) ـ زيد الشهيد ـ (حليف القرآن) ، في (الكثرة والقلة في القرآن الكريم) في مصنفه النافع الماتع (سعد السعود) ، وقد ضمّنها زيد الشهيد (ع) آياتٍ منتقاة مختارات من كتاب الله (جلّ جلاله) في الكثرة والقلة ، تعدّ من تباشير التفسير الموضوعيّ وبداياته في البحث التفسيريّ الإسلاميّ [٤٥].

ففي بيان دلالة (عهد الله) في قوله تعالى ((**وإذِ ابتَلى إبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلمَاتٍ فأَتمَّهُنَّ قالَ إنّي جاعِلُكَ لِلناسِ إمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِيَّتي قَالَ وَمِن ذُرِيَّتي قَالَ لَا ينالُ عَهدي الظالمينَ**)) [سورة البقرة: ١٢٤] ، قال ابن طاووس رادّاً على مَن قال: إذا كان العهد الإمامة، فقد نالها معاوية بن أبي سفيان ويزيد، وبنو أمية وهم ظالمون، والجواب : " إنَّ عهد الله (جلّ جلاله) وإمامته ما نالها ظالم ابدًا، وليس من كان ملكًا بالتغلب يكون قد نال عهد الله فإنَّ ملوك الأكاسرة والقياصرة وغيرهم من الكفار، وقد ملكوا أكثر مما ملك كثير من أئمة المسلمين وهم في مقام منازعين لله تعالى ومحاربين فكذا كلُّ ظالمٍ يكون عهد الله وامامته ممّنوعة منه منزهة عنه وفيه إشارة ظاهرة إلى أنّ الإمامة تكون من اختيار الله تعالى دون اختيار العباد؛ لإنّ العباد إنّما يختارون على ظاهر الحال ولعل باطن من يختارونه يكون فيه ظلمٌ وكثير من سوء الأعمال فإذا كان الظالم مطلقًا مانعًا من عهد الله تعالى وإمامته فلم يبقَ طريق إلى معرفة التي ينال عهد الله تعالى إلّا بمن يطلع على سريرته أو يطلعه الله تعالى على سلامته من الظلم في سره وعلانيته ".[٤٦]

---

(٤٢) سعد السعود : ٢٤٦ .

(٤٣) سعد السعود: ٢٤٧.

(٤٤) اليقين باختصاص مولانا علي (A) بإمرة المؤمنين : ١٢٠ .

(٤٥) سعد السعود : ٥٢٢ ـ ٥٢٩ .

(٤٦) سعد السعود : ٥٢٢ ـ ٥٢٩ ..

لا يخفى أنّ ابن طاووس استعمل طريقةً مِنْ طرائق البيان الحِجاجي، باستجلاب حجة تقريبية تؤكّد المعنى للأول، فقد ثبتت إمامة الكفرة (الأكاسرة والقياصرة) وغيرهم، فمن باب أولى تثبت إمامة معاوية بن أبي سفيان ويزيد، فهي إمامة دنيوية باختيار العباد لا يلتفت إليها، مصيرها السقوط والتهافت في ميزان العدل الإلهي، والقسطاس الرباني ، إنّما الاعتبار والارتكاز في الإمامة الحقيقية التي بشّر الله (جلّ جلاله) بها، (لا ينال عهدي الظالمين)، الإمامة التي ينالها من وصفوا في كتابه: ((**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**)) [سورة الفرقان: ٧٣ ــ ٧٦] وهذه دلالة واضحة على أنّ الله (عزّ و جل) قادر على إناطة الإمامة الحقيقية بمن هو أحق بها، ونرقب تقنية الإقناع التي وظّفها ابن طاووس في بيانه استحقاق الإمامة لأهلها الحقيقيين، وهي: " أن تأتي بمعنى ثمّ تؤكد، بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجّة على صحته ". [٤٧]

ثالثًا: المناظرة المتخيلة

توسل ابن طاووس بوسائل مختلفة في الحِجاج من أجل تقريب الدلالات وجعلها واضحة في ذهن المخاطَب، للوصول إلى الوظيفة التداولية التي ينشدها المخاطِب (المتكلم) ، وقد تنوعت على هيأة صور منها :

أ . السؤال والجواب : وتتمثل هذه الصورة في ظلّ طرح السؤال والإجابة عنه لغرض شدّ المخاطب وإيقاظه وإشراكه في الخطاب ،وهي تقنية من تقنيات الحِجاج التي ترشحت من الخطاب الديني الطاووسيّ، وتظهر في جوابه عن سؤال ابتدعه من بنات أفكاره ، ونسيج خياله ضاربًا في أعاميق المنظومة الدينية الإنسانية الصحيحة التي تستمدّ من إسداء الحمد والشكر للخالق العظيم (جلّ جلاله) قال ابن طاووس :" فإذا أنعم الله جلّ جلاله بكسوة عليك فأخل بنفسك مع ربك (جلّ جلاله) وطهّر جسدك وقلبك من الآثام ، ووسّخ الذنوب بالتوبة واغسل التوبة وما يزال به دنس العيوب ، وقُم قائمًا بين يدي المطلع عليك وخُذِ الثياب من يد حال وجوده ومن لسان حال كرمه وجوده" [٤٨] ، كأنّ ابن طاووس يسأل : ماذا تقول لو أنعم الله (جلّ جلاله) عليك بكسوة ؟ ، فيأتي الجواب بباقة من التشكرات، وطاقة من الاعترافات بحقّ المنعم والمعطي(جلّ جلاله) ، فجاءت على هيأة جمل أمرية : (أخلُ بنفسك، طهّر جسدك، وسخِ الذنوب، اغسلِ التوبة، قمْ قائمًا، خذِ الثياب) وهي أفعال كلاميّة مباشرة تتمثل في الوجوب على سبيل الحتم والإلزام .

وتتعالى هذه التقنيّة (السؤال والجواب)، فتناغم مشاعرَ ابن طاووس وأحاسيسَهُ فيوجّه السؤال لعقله وقلبه فيجعلهما عاقلين يسمعان كلامَه ويعيان ما يقوله ، قال ابن طاووس " فلمّا رأيت عقلي وقلبي يغفلان وينسيان من حيث لا أدري ، ويحصل بذلك ضري وكسري ، وجدتهما لأجل ذلك لا يصلحان للاهتداء والاقتداء ، وسألتهما بلسان الحال من أين يعرض لهما حصول الداء ؟ فقالا : لا ندري ولا طريق لنا إلى مأمول كمال الشفاء إلا من جانب يعرف من أين طَرَأ علينا أصل هذا البلاء ، فاجمع رأيي ورأيهما على مداكف السؤال بلسان الحال إلى كعبة كرم منشئ العقول والقلوب، ومالك الآمال في أن يدخلنا في ظلّ حمى حمايته ويؤهلنا لما هو (جلّ جلاله) من رحمته ، وجدنا منه (جلّ جلاله) كما أردناه ، وزيادات على ما رجوناه ، ((**وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ**)) " [٤٩] .

---

(٤٧) كتاب الصناعتين : ٤٣٤ .

(٤٨) كشف المحجة لثمرة المهجة : ٩٦ .

(٤٩) جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع : ٢٢ -٢٣ . سورة الأعراف من الآية / ٤٣ .

ومجمل القول: إنَّ الحِجاج الديني التداوليّ عند ابن طاووس في ضوء ما عرضناه لا يقف عند حدود الإفهام فقط، بل مؤسسًا على الإقناع ، فهو مبنيٌّ على " عناصر ثلاثة : وسائل الإقناع أو البراهين، والأسلوب والبناء اللّغوي ، وترتيب أجزاء القول ، ثمّ هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو ومنهم البلاغيون العرب عنصرًا مستقلًا ، ويتضمن الحركة والصوت " [٥٠] ، وفي أدناه مخطط يوضّح العلاقة بين هذه العناصر :

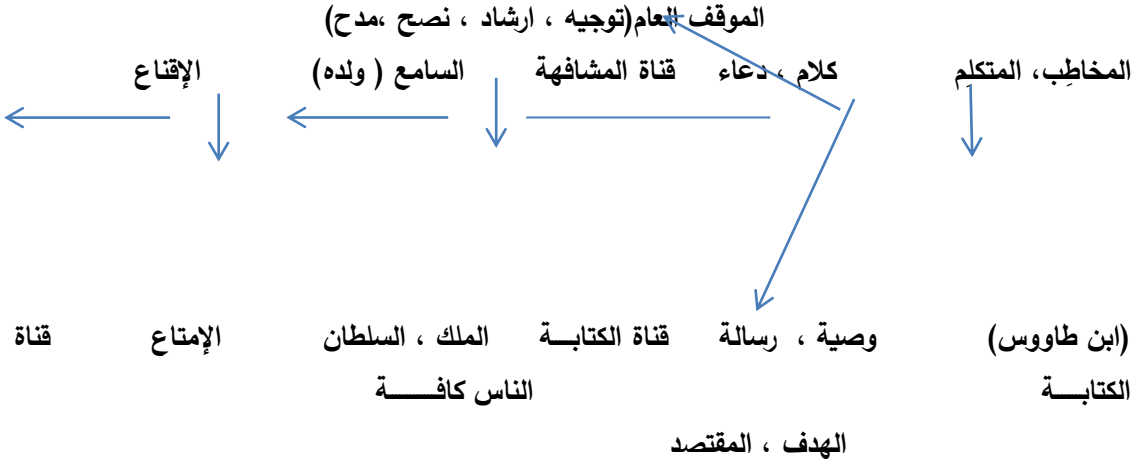

ب : أسلوب الفنقلة (الحوار)

من الوسائل التي توسّل بها ابن طاووس في خطابه الديني من أجل توسيع دائرة البحث، والإحاطة بمدياته وتخومه (أسلوب الفنقلة) ، وهيأته : فإنْ قلتَ : قلنا ، فإنْ قلتُ : قالوا ، فإن قلنا : قالوا ... وغيرها ، وهذا الضرب من الحِجاج يقصد به كذلك البيان والإيضاح وتقريب الصور إلى الأفهام تقريبًا تداوليًا .

تأمل معنا خطابه الديني في وصف رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، ونقاء قلب الحاج لصاحب البيت (جلّ جلاله) ، قال " وأمّا الحج إلى الله (جلّ جلاله) بقصد بيته الحرام أكرمك الله (جلّ جلاله) يا ولدي بالحجّ على التمام إن شاء الله تعالى، فاعْلَمْ : أن كلّ مَنْ قصد الحج لأجل سواه فقد ضاع قصده وفسد مسراه وإنّما يقصد كل مقصود بالله (جلّ جلاله) ولأجل الله (جلّ جلاله) ولقد كنّا مرّة يا ولدي في طريق مشهد الحسين (عليه السلام) ؟ وكنا متيممين فنحتاج أن نصلي بالنوافل والفرائض بحسب ما هدانا الله (جلّ جلاله) إليه فصار الرفقاء يستعجلون فقلت لهم : نحن نقصد الحسين (عليه السلام) لأجل الله (جلّ جلاله) ؟ ، أو نقصد الله (جلّ جلاله) لأجل الحسين (عليه السلام) فقالوا: بل نقصد الحسين لأجل الله تعالى فقلت لهم: فإذا ضيعنا في طريق الله (جلّ جلاله) الذي نقصد الحسين (عليه السلام)لأجله فكيف حالنا عند الحسين (عليه السلام)وبأي وجه يلقانا هو ويلقانا الله (جلّ جلاله) عند الحسين (عليه السلام) إذا تعرضنا لفضله؟ فعرفوا أنّهم غالطون "[٥١].

ويستبين هذا الاسلوب الحِجاجيّ (الفنقلة) في ضوء حكاية ابن طاووس لسؤال طرحه عليه أحد الفقهاء ، قال : " ولقد قال لي قائل من الفقهاء : كانت الأئمة (ع) يدخلون على الملوك والخلفاء، فقلت له : ما معناه إنهم صلوات الله عليهم كانوا يدخلون والقلوب معرضة عمن دخلوا عليه ساخطة عليه بقدر ما أراد الله (جلّ جلاله) من سخطه وإعراضه عنهم ، قلت : فهل تجد من نفسك هكذا إذا قضوا لك حاجة أو قربوك أو وقع إحسان إليك منهم؟ قال: لا ، واعترف بتفاوت الحال وأن دخول الضعفاء ما هو مثل دخول أهل الكمال " [٥٢].

(٥٠) فن الخطابة ، أرسطو ، عبدالرحمن بدوي : ١٨١ .
(٥١) كشف المحجة لثمرة المهجة : ١٤٥ .
(٥٢) المصدر نفسه : ١٤٧ .

السلالم الحِجاجية

تطرح هذه التقنية تصورًا لعمل المحاججة من حيث هو تلازم بين قبول الحجة ونتيجتها ، فالغرض من تدرّج الحجج وتراتبيتها ملء الفجوات التي تشكل مجالًا لتسرب الشك وعدم الاطمئنان ، فالتركيز على مبدأ التدرج الحِجاجي في ضوء هذه السلالم يعطي إيحاءً بقوة الحجج وضعفها في الأساس ، ولا ترتبط بالمحتوى وإحالة هذا المحتوى على مرجع محدد [٥٣] .

ونلمح في الخطاب الديني الطاووسي تقنية السلالم الحِجاجية ، وقوانين التفاضل والتقابل ، وتظهر في تدرّج العبارات وانتظامها من أجل التساند الحِجاجيّ كافة ، ومن لواحق السلالم الحِجاجية ولوازمها (الروابط الحِجاجية) التي تقوي الترابط الحاصل بين البنى النصية ، وهي الضمان لوحدة الكل ، التي تحقق الوظيفة الحِجاجية والترابط داخل النص الحِجاجي ، وقد تمثّلت بعناصر نحوية في طبيعتها ، مثل : الواو ، والفاء ، ولام التعليل ، ولكن ، وإذن ، وحتى[٥٤]، وتتمثل أيضًا بجملة من الأساليب المتضمنة داخل الملفوظ الحِجاجيّ كالنفي ، والحصر ... وغيرها ، وتشرق السلالم الحِجاجية وتنير في بيان أخلاقية السفر والرحلة ، في الخطاب الطاووسيّ فجاء بإسلوب واضح يبدو فيه أثر القوة والجمال وحسن تقرير المعنى في الإفهام رغبة منه في ملاطفة التداوليّة ومغازلتها ، القائمة على الإبلاغ والتواصل ، ولاسيّما استعماله الروابط الحِجاجيّة التي تؤكد أنّ النص شبكة من الصلات والعلاقات بين النسقية ، وليس مجرد عناصر تتوزع تلقائيًا ، نحو (بَلْ ،لأنّك ، واو العطف) فضلًا عن التكرار (إليه) ، قال: " وإنْ احتجت إلى سفر يا ولدي كان الله (جلّ جلاله) لك حافظًا في سفرك وجميع ما أحسن به إليك وخلفًا لك في كل ما تغيب عنه، ممّا أنعم به عليك فلا تسافر بالطبع والغفلة والأطماع الدنيوية فتكون مخاطرًا مع الله (جلّ جلاله) ومهونا لجلالته الإلهية ومضيعًا زمان أسفارك في غير ما ينفعك لدار قرارك بل يكون قصدك أنّك تتوجه من الله (جلّ جلاله) ؛ لأنّك حيث كنت فأنت بين يديه ، وإلى الله (جلّ جلاله) بالتوكل عليه وبالله (جلّ جلاله) بالتفويض إليه وإليه (جلّ جلاله) بالإقبال عليه فيكون سفرك خدمة له وبه وسفرًا إليه وتصير في حماية ورعاية وكفاية ذلك الاخلاص له والتقرب إليه " [٥٥] ، فترقي المدارج الحِجاجيّة وسلالمها في العبارات يوميء بنتيجة إيجابية يقصد منها تقارب تداوليّ من أجل إقناع المتلقيّ ، والدخول في دائرة الصواب والتقوى ، فإنّما الدنيا جدارٌ يريدُ أنْ ينقَضَّ ، وفي أدناه مخطط بالسلّم الحِجاجيّ للعبارات ، والروابط الحِجاجيّة :

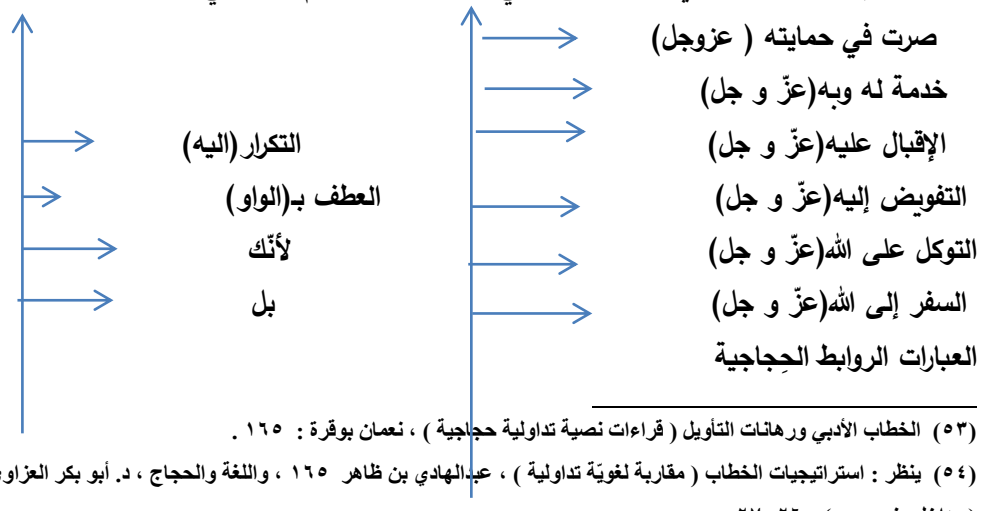

(٥٣) الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حجاجية) ، نعمان بوقرة : ١٦٥ .

(٥٤) ينظر : استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغويّة تداولية) ، عبدالهادي بن ظاهر ١٦٥ ، واللغة والحجاج ، د. أبو بكر العزاوي : ٧٣ ، والتداولية والحجاج (مداخل ونصوص) : ٢٦ -٢٧ .

(٥٥) كشف المحجة لثمرة المهجة : ١٢٠ .

ومن الروابط الحِجاجية التي تسهم في توثيق العلامة السُلَّمية التفاضلية بين الملفوظات (أنّ) التي تستثمر استثماراً حجاجياً لغرض التساند والتعانق للوصول إلى النتائج ، وقمع الخصوم ففي قوله تعالى في وصف حال أصحاب الكهف(المماليك) الذين عرفوا الله (جلّ جلاله) حقّ معرفته، وانطووا على القيم والمبادئ الإنسانية الديني ة السماوية السامية، حينما تركوا الدنيا وفرّوا إلى السعادة الإلهيّة، قال تعالى: ((**وَتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وَهْم رُقُودٌ**)) [الكهف: من الآية١٨]

قال ابن طاووس: " قيل: بعث أصحاب الكهف بعد موتهم الطويل ... فإنّه قد قدّم هذا أنّه بعثهم من الرَّقدة ، والقُرآن الشريف يتضمّن تصريحاً بأنّه: ((**وَتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وَهُمْ رُقودٌ**)) ومن آيات الله تعالى في بقائهم بغير طعام ولا شراب ولا تغيّر الأجساد، ولا مرض ، ولا تأثير الارض فَهُم مع تقلبهم ذات اليمين، وذات الشمال؛ لأنّ كثرة التقليب في مثل تلك المرّة إذا لم تكن بقدرة القادر لذاته ؛ لا بُدّ أن يؤثر في الأجساد الترابيّة، وهو حجّة على منكري البعث". [٥٦] ولا ريب أن الرابط الحِجاجي (أنّ) قد استمدّ من السياق القرآني قوله تعالى((**وَتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وَهْم رُقُودٌ وَنُقَلبُهُمْ ذَاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمَالِ**)) [سورة الكهف: من الآية١٨] وكذلك قوله تعالى: ((**وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهَمْ لِيتَسَاءَلُواْ بَيْنَهُمْ**)) [سورة الكهف: من الآية ١٩] وهو يمثل نقطة الارتكاز في الخطاب الطاووسيّ.

ومن التقنيات الحِجاجية التي أشرنا لها من قبل (السلالم الحِجاجية) ويظهر ذلك في صورة (التعاند الحِجاجي)؛ فإنّ الملفوظات المتضمنة في العبارات تنتظم انتظاماً سليماً بنيوياً إلّا أنّها تتساق في تيار عكسيّ وهو ما يسمى بـ(التعاند الحِجاجي) الزوج العنادي الذي يؤول إلى نتيجة سالبة، نحو: زيد ذكي لكنّه غير مؤتمن، فالتعاند الحِجاجيّ يولد نتيجة سالبة، ونحو: الجو جميل لكن الوقت متأخر ، ففي قوله تعالى: ((مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثلًا يُضِلُّ بِهِ كثيرًا وَيَهدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُ بِهِ إلَّا الفاسِقِينَ)) [البقرة : ٢٦] قال ابن طاووس: " إنّ هذه الآية إذا حملناها على ظاهر ما ذكرتم وأنّ الضمير راجع على القرآن الشريف، فهو أيضاً خلاف دعواكم، وخلاف عقيدتكم؛ لأنّكم تزعمون أنّ الضلال من الله تعالى بغير واسطة القرآن، ولا واسطة من غيره، ومتى جعلتم لغير الله تعالى شركة أو أصلاً في الضلال فقد نقضتم من أنّ الله تعالى فاعل لجميع أفعال العباد، ولكلّ ما وقع منهم من الضلال والفساد".|[٥٧] والضمير عائد على (مثلاً) وهو قول الفراء والزمخشري وغيرهما.[٥٨]

ولا يخفى أن ابن طاووس الحليّ يرد على أهل الجبر الذين يزعمون أنّ الله (جلّ جلاله) أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، وينسون أنّهم ظلموا الله (عزّ و جل) في حكمه، وقد ردّ الله تعالى عليهم قال:((**وَلَا يَظْلِمُ رَبَّكَ أحدًا**)) [الكهف:٤٩] وقوله ((**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**)) [الحج:١٠] وقوله: ((**إنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ النـاسَ شيئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)) [يونس:٤٤] فمرجعية الضمير بحسب قول المجبّرة تأسيساً على ظاهر كلامهم هي خلاف أصولهم القائمة على أنّ الله (عزّ و جل) قد أجبر العباد على ارتكاب المعاصي، زد على ذلك أنَّ حجتهم الواهية هذه تعود إلى حجة أوهى ، وهي أنّ عود الضمير إليه يقتضي الشركة معه، ومن هنا فقد تعاندت الحجتان، وتأسيساً على ذلك يمكننا أن نجزم بأن النتيجة سالبة، وأن تنجح دعوتكم أن الله (عزّ و جل) مجبر عباده على المعاصي.[٥٩]

---

(٥٦) سعد السعود : ٣٢٩ .

(٥٧) سعد السعود: ٥٧

(٥٨) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢٣/١، ، والكشاف ، الزمخشري: ١٤٦/١.

(٥٩) ينظر: تحف العقول عن آل الرسول: أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني: ٣٣٨- ٣٤٠، والاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي: ٢/ ٤٨٧-٤٨٨

ومن المواضع التي شكّل الرابط الحِجاجي (واو العطف) مزية إيجابية في التأثير والإقناع فضلاً عن التقريب التداوليّ بيانه دلالة لفظ (أوّاب) في قوله تعالى: ((**اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**)) [ص: ١٧] ، قال : " إنْ قيل إنّ (أوّاب) معناه كثير الرجوع ، وقد قال في تفسيره رجّاع عن كل ما يكرَهُ الله إلى ما يحبّ فهو يتطرق من هذا ما يؤخذ على داود ، والجواب : أن كُلّ مَنْ قيل عنه : إنّه رجع عن شيء ممّا يلزم أنّه دخل فيه فإنّ الرجوع الذي يتضمّنه المدح لداود يقتضي أنْ يكون معصومًا منزهًا عن الدخول فيما يكرهه الله ابدًا ـ ولو كان رجّاعًا ـ بمعنى كثير الرجوع عمّا دخل فيه، لكان ذلك متناقضًا لمراد الله (جلّ جلاله) بمدحه وجواب آخر لعلّ معناه: أنّه ما عرض له غير الله إلّا تركه ورجع إلى الله والعوارض لا تُحْصى للإنسان ، وجواب آخر: لعلّه ما عورض له مندوبان أحدهما أرجح من الاخر إلّا ترك المرجوح ورجع إلى الراجح ، وجواب آخر لعلّ المراد أنّ داود لمّا رأى أنّ الله (جلّ جلاله) لمّا انفرد بتدبيره قبل أنْ يجعل لداود اختيارًا كان التدبير محكمًا، وداود سليم من وجوه المعاتبات" [٦٠] ،إنّ هذه الأجوبة المعطوفات بحرف العطف تعبّر عن تقويمات معياريّة موجبة مادحة، فورودها في الخطاب غالباً ما يكون مصحوباً بقصد حِجَاجيّ، ويمكن بيان هذه الأجوبة الطاووسية بالمخطط السلميّ الحِجاجي:

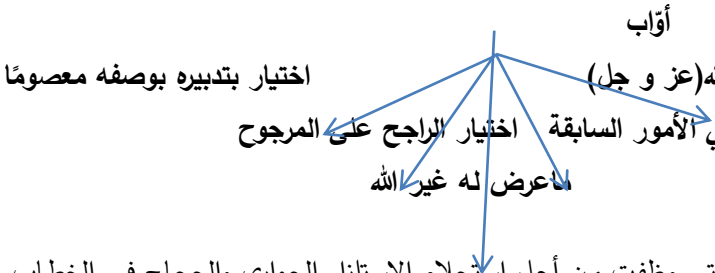

وبهذه العبارات التي وظفت من أجل استجلاء الاستلزام الحواري والحِجاج في الخطاب الديني الطاووسيّ نختم فقرات البحث .

الخاتمـــة ونتائج البحث

أولًا : كان ابنُ طاووس متجهاً نحو وضع اسس وركائز ثابتة للتواصل والتحاور بوصفهما مقاربتين تداوليتين خاصتين للخطاب الملفوظ ، يمرر معرفةً بين المتكلم والسامع ويطمحُ إلى استكشاف الطرائق التي يشتغل بها الخطاب في كليته من أجل تمرير هذه المعرفة التي يحملها .

ثانيًا: أراد ابن طاووس في خطابه الدينيّ التبليغ والتواصل والتراحم لمحاكاة الواقع ، وتقريب الصور وملاطفة المجالات التداولية ومغازلتها ، فعناصر التواصل والتفاعل والابلاغ حاضرة في أفعاله وأقواله .

ثالثًا: ظهر أنّ الخطاب الديني الطاووسيّ لم يقتصر على الإبلاغ والتواصل فحسب بل تضمن مجموعة من القواعد الأخلاقية والاجتماعية بخلاف نظرة التداوليين الذين ركّزوا على الجانب التبليغيّ في الخطاب ، ولم يلتفتوا إلى الجانب التهذيبيّ والارشادي الذي نقطع أنّه الأصلُ في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية والمباشرة .

رابعًا: جاء أدب ابن طاووس الحليّ ولاسيّما خطابه الديني مشحونًا بالمعانيّ الحقيقية المباشرة ، والمعانيّ غير الحقيقية (غير المباشرة) التي تنتظم في سياقات إنتاجيّة توليدية وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين .

(٦٠) سعد السعود: ٢٥٤ـ٢٥٥

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

❖ الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي الطبرسيّ (من علماء القرن السادس الهجريّ) تحقيق : إبراهيم البهادري ومحمد هادي، الطبعة الثالثة، دار الأسرة إيران، ١٤٢٤ هـ.

❖ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبدالهادي بن ظافر الشهري، الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤ م .

❖ الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ ، العياشيّ أدراوي ، ، الطبعة الأولى ، دار الأمان ، المغرب ، ١٤٣٢هـ ـــ ٢٠١١م .

❖ الاستلزام الحواري في سورة البقرة (دراسة وصفية نحليلية تداولية) ، حَجَر نورما وحيدة ، جامعة مولانا مالك ابراهيم ، مالانج ، أندوسيا ، ٢٠١٠ م .

❖ الأفعال الإنجازيّة في العربية المعاصرة ،(دراسة دلالية ومعجم سياقي)، عليّ محمود حجيّ الصّراف، الطبعة الأولى ، مكتبة الآداب ، ٢٠١٠م .

❖ البرهان في وجوه البيان ، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي ، بغداد ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧.

❖ تحف العقول عن آل الرسول، ابو محمد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرانيّ (من أعلام القرن الرابع الهجري) ، الطبعة الأولى ، منشورات الأعلمي ، بيروت ،١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م .

❖ التخيل وبناء الأنساق الدلالية (نحو مقاربة تداولية)، الدكتور سعيد جبار ، الطبعة الأولى ، مطبعة رؤية ، مصر ، ٢٠١٣ م .

❖ التداولية والحِجاج (مداخل ونصوص)، صابر الحبّاشة ، الطبعة الأولى ، مطبعة صفحات ، دمشق ، ٢٠٠٨م .

❖ جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، السيد علي بن موسى بن طاووس ، جواد قيومي الأصفهاني ، مؤسسة الآفاق ، الطبعة الأولى ، ١٣٧١هـ .

❖ الحِجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صَوْلة، الطبعة الأولى ، منشورات كلية الآداب ، بمنّوبة ، الجزائر ، ٢٠٠١م .

❖ الحِجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، حافظ اسماعيل علوي، الطبعة الأولى ، دار الكتب الحديث ، أربد ، الأردن ، ٢٠١٠م .

❖ الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حجاجية) : نعمان بوقرة ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب الحديث، الاردن ، ٢٠١٢م .

❖ الخطاب الاسلاميّ الى أين ؟ حوارات وحيد تاما (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن)، دار الفك، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـــ ٢٠٠٦ م.

❖ دراسات في الحِجاج، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن، ط١ ، ٢٠٠٩ م

❖ السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج ، الفاضل القطيفي (ت ٩٠٥ هـ) ، مؤسسة النشر الإسلامي ، ط١ ، ١٤١٣ هـ.

❖ سعد السعود ، ابن طاووس ، منشورات الرضي، مطبعة أمير، قم ، ١٣٦٣هـ.

❖ عندما نتواصل نتغير ـ مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحِجاج ، عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦ م .

❖ فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة، ابن طاووس، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر الحسني ، ابن طاووس ، تحقيق غلا محيسن المجيدي ، دار جواد الأئمة (β) للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤٣٢ ــ ٢٠١

❖ في أصول الحوار وتجديد الكلام ،الدكتور طه عبدالرحمن ، المركز الثقافي العربي، المغرب ، ٢٠٠٠م .

❖ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٢م .

❖ الكشاف عن حقائق غوامض التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث ، ١٤٢١ هـ ــ ٢٠٠١ م .

❖ كشف المحجة لثمرة المهجة ، رضي الدين ابن طاووس ، تحقيق : الشيخ محمّد الحسّون، الطبعة الثالثة ، ١٤٣٠ هـ.

❖ الكليات، أبو البقاء الحسين الكفوي ، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م .

❖ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المركز الثقافيّ العربيّ ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨م .

❖ اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربيّ والمنطق الرياضيّ ، الدكتورة مها خير بك ناصر ، مجلة التراث العربي، العدد (١٠٨)، أكتوبر ، ٢٠٠٧ م .

❖ اللغة والحِجاج، الدكتور أبو بكر العزّاوي ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٦ م .

❖ مظاهر التداوليّة في مفتاح العلوم للسكّاكي (ت٦٢٦هـ) ، باديس لهويمل ، جامعة محمد خيضر، بِسكَرَة ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، الأردن ،٢٠١٤ م .

❖ معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧ هـ)، الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م .

❖ مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق : أكرم عثمان يوسف، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الرسالة ، بغداد ، ١٩٨٢ م .

❖ المفردات في غريب القرآن ، ابو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ(الراغب الأصفهانيّ) (ت ٥٠٢)، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات ، ١٤٣٠ هـ ــ ٢٠٠٩ م

❖ مقاييس اللغة ، لأبي الحسين احمد بن فارس ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٩٩هـ .

❖ المنطق الفطري في القرآن الكريم، محمود يعقوبيّ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، (د . ت) .

❖ نشأة الفلسفة العلمية، هانس رايشيناخ ، تحقيق : فؤاد زكريا، دار الوفاء، الإسكندريّة ، (د. ت) .

❖ النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن عليّ بن عيسى الرماني (٣٧٦هـ)، مطبوع ضمن (ثلاث رسائل في الإعجاز) ، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، الطبعة الخامسة دار المعارف، مصر، ٢٠٠٨م .

❖ وحـي الرسـالة (فصـول فـي الأدب والنقد والسياسـة والاجتمـاع)، أحمـد حسـن الزيّـات، الطبعـة الثامنـة ، دار نهضـة مصر، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

❖ اليقين باختصاص مولانا عليّ (عليه السلام) بإمرة أمير المؤمنين، والتحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين ، بتحقيق الأستاذين: محمد باقر الأنصاري، محمد صادق الانصاري، الطبعة الاولى، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الاسلامي، بيروت، ١٤١٠ هـ ــ ١٩٨٩ م.